رأي حول دراسة نص للمتنبي

أ. محمد عبد الصمد الإجراوي

اطلعت على المقال الذي نشرته مجلة « الدارة » الغراء للدكتور : حلمي محمد القاعود ، بعنوان « دراسة في نص المتنبي يمدح الخصيبي » . وقد أثلج صدري ما وجدت فيه من حرص على بعث جانب مهم من تراثنا الشعري ومن رغبة في إلقاء مزيد من الأضواء الكاشفة على المكونات الفنية والمعنوية لنص المتنبي ، وتقريبها من عامة القراء .

وقد لفتت انتباهي أمور واردة في هذه الدراسة تتصل برواية أبيات من شعر المتنبي وتفسير بعض المعاني منه . فلم أجد بدّاً من عرض ما عنَّ لي ، راجيا أن يكون فيه تتميم للفائدة وإغناء للبحث . ويمكن ترتيب ذلك في النقاط الآتية :

١) أوضح الدكتور القاعود جانبا من معنى بيت أبي الطيب :

وَلاَ أُعَاشِرُ مِنْ أَمْلاَكِهِمْ أَحَـــداً   إِلاَّ أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثَـــنِ

فقال : « هؤلاء، كالأصنام والأوثان » (١) . وهذا القول يحتاج إلى فضل بيان، لتحديد مدلول البيت تحديدا دقيقا . قال أبو الحسن الواحدي (المتوفي سنة : ٤٦٨) في شرحه : المعنى « لا أخالط أحدا من ملوكهم إلا وهو يستحق القتل ، كالصنم الذي يستحق أن يكسَر ويُفصل بين رأسه وبدنه حتى لا يكون على خلْقة الإنسان . ويجوز أن يكون ضَرْب الرأس كناية عن الإذلال (أي) هو أحق بالإذلال من الوثن » (٢) . ونقله أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦) في « التبيان » (٣) . وبمثله شرحه غيرُهما (٤) .

٢) ومما ذكر لدى دراسة بيت المتنبي :

فَقْرُ الجَهُولِ بِلاَ عَقْـــلٍ إِلَى أَدَبٍ   فَقْرُ الحِمَارِ بِلاَ رَأْسٍ إِلَى رَسَـــنِ

قوله : « يشبِّههم - في جهلهم - تشبيها طريفا بالحمير التي بلا أربطة تُسحَب منها » (٥) . وفي تقديرنا أن معنى البيت يخالف ما ذهب إليه الباحث ويؤكد هذا قولُ الواحدي : « أول ما يحتاج إليه الإنسان : العقل والقلب الذي به يَعْقِل ثم يتأدب بعد ذلك ، فإذا لم يكن عاقلا لم يحتج إلى أدب كالحمار إذا لم يكن له رأس لم يحتج إلى الرسن » (٦) . وواضح أنه لا وجه لحمل البيت على ما ذكر الباحث من تشبيه ، .وإنما هو ضرب من القياس .

ولعل مما يقوي هذا التوجيهَ موقفُ العكبري الذي ربط معنى هذا البيت بقول أرسطو في حكمه : الحس قبل المحسوس والعقل قبل المعقول » (٧) .

٣) ومما يستدعي وقفة خاصة تعليقَ الباحث الفاضل على بيت أبي

الطيب :

تَحتَ العَجاجِ قوافِيها مُضَمَّرَةً   إذَا تُنُوشِدْنَ لَمْ يَدْخُلْنَ في أُذُنِ

إذ بيَّن أن المتنبي يتهدد - في هذا البيت - ويتوعد بالهجاء ، وأنه « استعار لقصائده صورة الخيل المذكرة والمؤنثة ، وهي تكِرُّ في ميدان القتال ، ليعبر عن مدى قسوة هجائه المنتظر أو المتوقع » (٨) . وليس هذا مراد الشاعر في البيت . قال أبو الفتح عثمان بن جني (تـ : ٣٩٢) في تفسيره : « يعني بالقوافي : الخيل... (أي) إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن ، لأنهن لَسْن - في الحقيقة - قوافيَ » (٩) ، وزاد أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (تـ : ٤٥٨) معنى المصراع الثاني بيانا فقال : « ... إنهن لسن - في الحقيقة - قوافيَ فَتَلجُ الاسماعَ ، وإنما هن خيل . وليس هناك تناشُد ، إنما استجازه للفظ القصائد والقوافي » (١٠) . وهذا جميعه ، يؤكد أن الشاعر لم يقصد الهجاء ، وإنما كنى بالقصائد عن الغارة التي يهدد بها أولئك الذين مدحَهم ، مع أنهم لا يستحقون المدح ، لبخلهم وجهلهم .

٤) وتستوقفنا أيضا رواية بيت آخر وتفسيرُ معناه . ويتعلق الأمر بقوله :

كَأَنَّ مَالَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ مُغْتَرَفٌ   مِنْ رَاحَتَيْه، بِأَرْضِ الرُّومِ وَاليَمَنِ

إذ وردت روايته في المقال : « مفترق » (١١) ، بدل : « مغترف » التي أجمعت عليها مصادر شعر أبي الطيب وشروحه (١٢) . وقد ترتب على اضطراب الرواية فسادُ توجيه معنى البيت ، ففسره الدكتور القاعود بقوله : «يُشَبِّهُ كرمَه هذا بالمفترق الذي يسع أو يحتوي أرض الروم واليمن معا » (١٣). وهذا التفسير يخالف معنى البيت كما أوضحه شرّاح الديوان . ومن ذلك قول ابن جني : «عُرْفُه يسافر إلى مَنْ نَأى عنه ، فكأنه يوصِله إليه من راحتيه . فعطاؤه بالبعد

كعطائه بالقرب » (١٤). ومنه قول الواحدي : « إن عطاءه يوجد في كل موضع ويسافر إلى كل أحد ، وإنْ بعُد عنه ، لأنه يؤخذ من يده في أرض الروم واليمن، أي عطاؤه بالأقاصي كعطائه بحيث هو »(١٥).

٥) ومثل هذا الاضطراب في الرواية والتفسير ، ما نجده لدى دراسة بيتي أبي الطيب :

لَمْ نَفْتَقِدْ بِكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى لَثَـــقٍ   وَ لاَ مِنَ البَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسُّفُنِ
وَ لاَ مِنَ اللَّيْثِ إلاَّ قُبحَ مَنْظَـــرِهِ   وَمَنْ سِوَاهُ، سِوَى مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

فقد روى في المصراع الأول من هذين البيتين " « لشق » (بالشين المعجمة)(١٦)، مع أن رواية المصادر : « لثق » (بالفوقية المثلثة) ، وعليها إجماع الشراح (١٧) ودارسي شعر أبي الطيب (١٨) . وقد يكون مثلُ هذا من تصحيف الطابع ؛ إلا أننا نلحظ اضطرابا أيضا في تفسير معنى البيتين . قال الدكتور القاعود مفسرا : يُشبِّه ممدوحه « بالمزن الذي لا يضيع منه إلا القليل والبحر الذي لا تؤثر في مائه الريحُ والسفنُ ، والليث الذي لا يؤثر في قوّته قبْحُ منظره » (١٩) .

وهوتحريف ظاهر للمعنى ، إذ يخالف ما ذهب إليه الشراح . من ذلك قول الواحدي: أي « لم نفتقد ـ بوجودك ـ من السحاب سوى الوحل الذي يكون في مائه ، ولا من البحر غيرَ الريح والسفن التي لا يمكن عبور البحر إلا بهما ، والمعنى أنه سحاب وبحر » (٢٠) . ومثلُه قولُ العكبري في تفسير معنى البيت الثاني : « لم نعدم بوجودك من الليث وشجاعته وإقدامه إلا قبحَ منظره ، ولم نعدم برؤيتك شيئا من الأشياء الحسنة، فجميع محاسن الدنيا فيك مجتمعة »(٢١). ومما يزيد المعنى وضوحا قول أبي محمد الحسن بن وكيع التنيسي (ت : ٣٩٣) : أي « فيك شَبَهٌ من كل شيء سوى ما كان غير حَسَن » (٢٢) . وهذا بعيد عما ذهب إليه الباحث في تفسير المعنى .

٦) وأحسب أن في القصيدة بعضَ الأبيات التي تستحق معانيها وقفةً

خاصة تكشف عن بعض خفاياها وتبين دقائق صنعتها . ومن ذلك بيتا أبي الطيب :

أَلْقَى الكِرَامُ الأُولَى بَادُوا مَكَارِمَهُمْ   عَلَى الخَصِيبِيِّ، عِنْدَ الفَرْضِ والسُّنَنِ
فَهُنَّ فِي الحَجْرِ مِنْهُ كُلَّمَا عَرَضَتْ   لَهُ اليَتَامَى ،بَدَا بِالمَجْدِ وَالمِنَنِ

فقد أوضح أبو علي ، حَمْدُ بن محمد بن فُورَّجَه (ت ٤٥٥؟) معناه قائلا : « ...إن الممدوح قاضٍ ، فمَدَحه بما يضاهي القضاء ، فجعل المكارم كالأيتام ، وجعلها في حَجْره لَمَّا مات عنها الكرام الأولى بادوا ، فكلما عرضتْ له الايتام بدا بالمكارم ... وقوله * عند الفرض والسنن * مما يُظهِر ذلك لك ويوضحه ، ولولا معنى حجر اليتيم لَمَا أجدى قولُه (هذا) . يريد : أَلْقَوْها عليه عند موجبات الفرض والسنن ، لأن كفالة اليتيم ووكالته من الفروض » (٢٣) . وقال ابن سيده موضحا : « أي باد هؤلاء الكرام وألقوا مكارمهم على هذا الممدوح ، كأنهم كَفَلوه إياها كما يكفل الوصي اليتيم .. (فـ) هذه المكارم التي مات أهلها بقيت يتامى في حَجْر هذا القاضي الممدوح ، فهو يفرق أمواله فيهم ويبدأ منهم بالمجد والمنّة » (٢٤) . ومثل هذا قول الواحدي : إن « الكرام الذين هلكوا ورَّثوه مكارمهم ، فهو يستعملها عندما يلزمه كالفريضة ، وعندما لا يلزمه كالسنة ... والمكارم في حَجره يربيها ، وكلما عرضت له الايتام بدأ باستعمال المجد ، فَمَنَّ عليهم وأحسن إليهم . وإنما ذكر اليتامى لانه يمدح قاضيا ، والقضاة يتكفّلون أمر الأيتام » (٢٥) . وفي هذه الأقوال ما يزيد - في تقديرنا - بيان دقة صنعة المتنبي ، وبُعْد مراميه الفنية .

وبعد ،

إن ما ذكرنا من ملحوظات لا يلغي - بحال من الاحوال - القيمة الحقيقية لمقال الدكتور القاعود ، باعتباره جهداً مشاركًا في إبراز معاني شعر المتنبي وبعض خفايا صنعته الفنية . وهذا الحوار دليل آخر على أن في شعر أبي الطيب المتنبي من الخصوبة والثراء ما يجعله منبعا ثَرّاً لكثير من النقاش العلميّ البنَّاء .

وأملي أن يكون فيما ذكرت زيادة إيضاح لمعاني شعر المتنبي ، وألاَّ أكون مجانِبَ الصواب ، وأن يجد تعليقي هذا من عناية الباحثين ما يمكّن من تصويب مضطربه وتقويم مُنْآده ، وعسى أن يُسهم في إفادة قراء « الدارة » وأن يُفسح المجال لإثراء الدراسات حول شاعر العربية الأكبر وشعره .

الهوامش

(١) مجلة « الدارة » السنة ١٢ العدد ٤ (مارس ١٩٨٧م) الصفحة ١٦٢
« ديوان المتنبي » بشرح أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي . تحقيق فريدريخ ديتريصي مكتبة المثنى

(٢) . بغداد ١٩٦٤ الصفحة ٢٥٤ .

(٣) « شرح ديوان أبي الطيب المتنبي » المنسوب لأبي البقاء العكبرى . وهو المسمى « التبيان في شرح الديوان » . بتحقيق مصطفى السقا ومن معه . بيروت ١٩٧٨ (الجزء الرابع الصفحة ؛ ٢١٠) .

(٤) عبد الرحمن البرقوقي في « شرح ديوان المتنبي » (بيروت دون تاريخ) ج٤ ص ؛ ٣٤٢ وناصيف اليازجي في « العرف الطيب » (بيروت ١٩٦٤) ج١ ص ؛ ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

(٥) مجلة « الدارة » العدد المذكور ص ؛ ١٦٢ .

(٦) شرحه . ص ؛ ٢٥٤ . ونقله عنه العكبري في « التبيان » ؛ ٤/٢١١ دون إشارة إليه .

(٧) التبيان ؛ نفسه .

(٨) الدارة . ص ؛ ١٦٥ .

(٩) شرح ديوان المتنبي المسمى بـ « الفسر » (مخطوطة المتحف البريطاني رقم ؛ ٢٩٥٨ OR الورقة ١٤٠/أ) . الأول في « الفتح الوهبي على مشكلات ديوان المتنبي » لابن جني أيضا (بتحقيق الدكتور ؛ محسن غياض . بغداد سنة ؛ ١٩٧٣) الصفحة ؛ ١٧٣ . وما بين القوسين زيادة للتوضيح .

(١٠) شرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيده (بتحقيق ؛ مصطفى السقا وحامد عبد المجيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٧٦) ص ؛ ١٢٥ . وانظر آراء كل من الواحدي في « شرحه » (ص ؛ ٢٥٦) والعكبري في « التبيان » ؛ ٤/٢١٤ والبرقوقي في شرحه (٤/٣٤٥)

واليازجي في « العرف الطيب » (١/٣٣٨ ـ ٣٣٩) . وهي جميعا تماثل هذين الرأيين .

(١١) الدارة الصفحة ١٥٨ .

(١٢) رواها ابن جني : « مقترف » في « الفسر » (مخطوطة المتحف البريطاني ، الورقة : ١٤١/أ) ومثلها في « الديوان » بتحقيق عبد الوهاب عزام . مصر ، ١٩٤٤) الصفحة : ١٥٨ ، وفي « شرح الواحدي » (ص : ٢٥٨) و « التبيان » : (٤/٢١٨) و « شرح البرقوقي » (٤/٣٤٩) و « العرف الطيب » (١/٣٤١) .

(١٣) « الدارة » الصفحة ١٦٨ .

(١٤) نقله العكبري في « التبيان » : ٤/٢١٨

(١٥) شرحه : ٢٥٨ . وانظر شرح البرقوقي : (٤/٣٤٩) والعرف الطيب : (١/٣٤١) .

(١٦) « الدارة » الصفحة : ١٥٨ ، وقد تكرر التحريف في الحاشية التي وضعتْ لشرح كلمات النص (الصفحة : ١٧٣) .

(١٧) « الديوان » (بتحقيق عبد الوهاب عزام) وشرح الواحدي والتبيان وشرح البرقوقي والعرف الطيب (في المواضع المذكورة في الحاشية : ١٢) .

(١٨) « المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن وكيع التنيسي (تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية . دمشق ١٩٨٢) ص : ٥٨٥ ، و « يتيمة الدهر » للثعالبي بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الثانية . مصر ١٩٧٣ (الجزء : ١ ص : ١٩٥) ، ونقله عنه يوسف البديعي في « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » القاهرة . ١٩٧٧) ص : ٤٣٥ . واللثق : الماء والطين يختلطان (اللسان . مادة لثق : ١٠/٣٢٦) .

(١٩) « الدارة » الصفحة : ١٦٨

(٢٠) شرحه : ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢١) « التبيان » : ٤/٢١٨ .

(٢٢) « المنصف » : ص : ٥٨٥

(٢٣) الفتح على أبي الفتح (بتحقيق : الأستاذ عبد الكريم الدجيلي . بغداد سنة : ١٩٧٤) الصفحة ٣٢٢ . ونقل الواحدي في شرحه (ص : ٢٥٦ ـ ٢٥٧) رأيا قريبا من هذا الرأي لابن فورجة أيضا ، ثم انتقده .

(٢٤) شرح المشكل من شعر المتنبي : ص : ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢٥) شرحه : ٢٥٦ . ونقل العكبري الجزء الأخير منه في « التبيان » : ٤/٢١٥ . مع اختلاف يسير في اللفظ .